الفصل الأول

مِنْ أَوَّلِ الْخَيْطِ نَبْدَأْ

obeikan.com

إطْلَالَــةٌ

لقد آثَرْتُ على عرض وكتابة الفترة التي تسبق حكم الإسلام لمصر وما عانته الأقباط من ظلم في النواحي السياسية، والاقتصادية، والدينية، والأخلاقية، والقهر والإذلال البدنيّ، والتعدّي على الأجساد والأعراض والكنائس والاضطهاد الدينيّ للأقباط، حيث عاشت في ذُلٍّ مهين، فأصبح الغزاةُ والمستعمرونَ يذيقونهم سُوءَ الْعَذَابِ، فتفننوا في إذلال الأقباط وتسخيرهم أسوأ من العبيد، مما جعل الأحوال السياسية، والاقتصادية، والدينية على أسوإ ما يكون.

الْمَبَاحِثُ:

- الْـمَبْحَثُ الْأَوَّلُ : الْأَحْوَالُ السِّيَاسِيَّةُ.
- الْـمَبْحَثُ الثَّانِي: الْأَحْوَالُ الاِقْتِصَادِيَّةُ.
- الْـمَبْحَثُ الثَّالِثُ: الْأَحْوَالُ الدِّينِيَّةُ.
- الْـمَبْحَثُ الرَّابِعُ: الاِضْطِهَادُ الدِّينِيُّ لِلْأَقْبَاطِ.

مِنْ أَوَّلِ الْخَيْطِ نَبْدَأُ

أَحْوَالُ مِصْرَ قَبْلَ الْفَتْحِ الإِسْلاَمِيِّ:

لقد عاشت الأقباط في فترة ما قبل الفتح الإسلاميِّ في ذُلٍّ مَهِينٍ، فكان الْغُزَاةُ لِـمِصْرَ يذيقونهم سوء العذاب، حتى أصبحوا يتفننون في إذلال هذا الشعب وتسخيره كالعبيد، بل وأسوأ من العبيد، مما انعكس ذلك على النواحي السياسة والاقتصادية والاجتماعية والدينية والأخلاقية، فأصبحت على أسوإ ما يكون، وإليك عزيزي القارئ بعض الجوانب من ذلك:

- **الْأَحْوَالُ السِّيَاسِيَّةُ للأقباط قبل الفتح الإسلامي: (حملة قمبيز بين قورش)**

كان غزو (قمبيز) لمصر عام (٥٢٥) قبل الميلاد من أسوإ الغزوات التي تعرضت لها البلاد؛ فقد أَعَدَّ قمبيز لحملته كل ما استطاع، ومالأه اليهود مقابلُ أن صَرَّحَ ببناء معبدهم في (أورشلين)، فجعل من فلسطين قاعدةً لتحركه نحو مصر، وانحاز إلى قمبيز رجل إغريقي يُدْعَى (فانيس) كان قائدًا لفرقة لمقاومة الحملة، كما أفاد قمبيز بدلالته على مسالك الصحراء، وتسهيل الاتصال ببدو سيناء لإمداده بالماء والمئونة عبر الصحراء، ومات فرعون مصر (أمازيس) وارتقى العرش بعده ابنه الشاب (أبسماتيك الثالث) قبيل الغزو مباشرة، وسار بجيشه من غزة، وتحرك أسطوله من عكا، وكانت وجهته بيلوز (الفرما) فهزم أبسماتيك الثالث، وكانت المعركة الثانية في (عين شمس)، ثم الثالثة في (منف) وهذا يعني أن قمبيز قد سلك الطريق نفسه الذي سلكه (عمرو بن العاص) من بعد، وفي منف وقع أبسماتيك أسيرًا وسقطت عاصمته في يَدِ قمبيز. كان قمبيز مَلِكًا هَمَجِيًّا أَذَلَّ المصريين إذلالاً مهينًا، فقد أجلس أبسماتيك وكبار رجال دولته عند مدخل المدينة، وألبس ابنة أبسماتيك، وبنات كبار رجال الدولة ملابس الإماء التي تكشف عن

أجسادهنَّ العارية، وأجبرهنَّ على حمل جرار الماءِ والسَّيْرِ حُفَاةً أمامهُ، وأمام الفرعون الأسير يسقين المنتصرين وَيَخْدِمْنَهُمْ، وعندما دَمَعَتْ عَيْنَا أبسماتيك أُمِرَ بِهِ قَمْبِيزَ فَقُتِلْ!!

وأراد قمبيز أن يواصل غزواته إلى (النوبة) ولكنه هُزِمَ، فارْتَدَّ على عَقِبَيْهِ، ثم عاد فَسَيَّرَ جيشه من طيبة غربا إلى (الواحات الخارجية) ومنها إلى (سيوة) ولكن ريحًا عَاتِيَةً ثارت على الصحراء، فَدُفِنَ هذا الجيش كله ولم ينج منه أحد، وَلاَ عُثِرَ عليه أحد بعدَ دخوله الصحراء! ولم يجد قمبيز بُدًّا من العودة إلى فارس، ولكنه مات في الطريق عام (٥٢٢) قبل الميلاد، وَقِيلَ إِنَّهُ انْتَحَرَ.

فَتَأَمَّلْ عَبْدَ اللهِ قبل ذلكَ بقليلٍ عندما أَذَلَّ قمبيز أبسماتيك ملك مِصْرَ إِذْلالاً مَهِينًا، فأجلسه هو وكبار رجال دولته عند مدخل المدينة، وألبس ابنة ملك مصر، وبنات كبار رجال الدولة ملابس الإماء اللاتي تكشف عن أجسادهنَّ العارية، وَإِجْبَارِهِنَّ على حمل جرار الماء والسير حُفَاةً عُرَاةً أمامه وأمام الْفِرْعَوْنَ الْأَسِيرَ يَسْقِينَ المنتصرين ويخدمنهم، وعندما أفزع هذا المنظر أبسماتيك وتذكر حالهُ ومآلهُ في تلك اللحظاتِ الرهيبةِ انفرطت عيناه تدمعان حُزْنًا وَأَسًى، ثم أُمِرَ به قمبيز فَقُتِلَ، وَلَمْ يَمْضِ كَبِيرَ وَقْتٍ حتى انتقم الله من قمبيز وَهُزِمَ بجنود الله الخفية أي: الريحِ التي ثارت عليه في الصحراء فَدُفِنَ هَذَا الْجَيْشُ الْعَرَمْرَمَ كله في الصحراء، ولم يَنْجُ منهُ أَحَدْ.

قال الله تعالى: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (هود: ١٨).

وجاء في الحديث الصحيح الذي رواه أبو هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: (دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ مُسْتَجَابَةٌ، وَإِنْ كَانَ فَاجِرًا، فَفُجُورُهُ عَلَى نَفْسِهِ) [١].

لاَ تَظْلِمَنَّ إِذَا مَا كُنْتَ مُقْتَدِرًا ... فَـإِنَّ الظُّلْمَ عُقْبَاهُ إِلَى النَّدَمِ
تَنَامُ عَيْنَاكَ وَالْـمَظْلُومُ مُنْتَبِهٌ ... يَدْعُو عَلَيْكَ وَعَيْنُ اللهِ لَـمْ تَـنَمِ

(١) صحيح الجامع برقم: (٣٣٨٢)، والسلسلة الصحيحة برقم: (٧٦٧).

وفي عام (٣٤١) قبل الميلاد وَجَّهَ الْفُرْسُ حَمْلَةً إلى مِصْرَ بَرًّا وَبَحْرًا، فاستطاعت أن تحتل مصر مرةً أخرى، حتى غزاها الإسكندر الأكبر بعد تسع سنوات.

حَمْلَةُ الْإِسْكَنْدَرِ الْأَكْبَرِ:

لقد خرج الإسكندر الأكبر من اليونان مُتَّجِهًا شَرْقًا حتى عَبَرَ (الوردنيل)، ثم اشتبك مع الفرس عند نهر (جرانيق) الذي يَصُبُّ في بحر (مرمره) وهزمهم سنة (٣٣٤ ق.م)، واختار هضبة (الأناضول إلى خليج الإسكندرية) حيث هزم الفرس هزيمةً ساحقةً في (إيسون) وَفَرَّ (دارا الثالث) ملك الفرس إلى بابل، ثم سار الإسكندر جنوبًا ففتح بلاد الشام حتى وصل إلى (مصر) في جيشٍ قَوَامُهُ (أربعون ألفًا وأسطولُه يَبْحُرُ بحذائهِ في البحر)، وسار (من غزة) إلى (بيلوز الفرما، ثم إلى منف) في الطريق الذي سلكه (قمبيز) من قبل (وعمرو بن العاص) من بَعْدُ، واستسلم (مازاكيس) الوالي الفارسي للإسكندر دون مقاومة سنة (٣٣٢ ق.م).

أنشأ الإسكندر مدينة الإسكندرية، ثم سار غربًا حتى (سيوه) وعاد إلى (منف)، ثم غادر (مصر) عام (٣٣١ ق.م) ليواصل فتوحاته، ولكنه توفي بالملاريا في ١٣ يونيه عام (٣٢٣ ق.م) وهو في الثالثة والثلاثين من عمره، وبعد وفاته تمزقت إمبراطوريته، واقتسمها قادته من بعده، فكانت مصر من نصيب (بطليموس بن لاجوس) وبدأ حكم البطالمة لمصر سنة (٣٠٦ ق.م) وتتابع حكمهم حتى هزيمة القائد الروماني (أنطونيوس) في معركة (أكتيوم) البحرية على يد القائد الروماني المنافس (أوكتافيوس) الذي عُرِفَ بعد ذلك بالملك (أغسطس)، وهكذا انتهت الفترة البطلمية التي عانى خلالها المصريون من التَّمَايُزِ الطَّبَقِيِّ، والمظالم المادية، وفساد الإدارة، حتى تفككت الدولة، وَضَعُفَ الجيشُ والأسطولُ، وبدأ الحكم (الروماني) لمصر واستمر قُرَابَةَ سَبْعَةِ قُرُونٍ، فكان أَطْوَلَ وَأَسْوَأَ فترات تاريخها.

اتَّصَفَ الْحُكْمُ الرُّومَانِيُّ لِـمِصْرَ بِالتَّعَسُّفِ، فقد برع الرومان في ابتكار الوسائل التي تتيح لهم استغلال موارد البلاد، ففرضوا على المصريين نُظُمًا ضَرِيبِيَّةً مُتَعَسِّفَةً شملت الأشخاص، والصناعات، والماشية، والأراضي، فضاق المصريون بها ذَرْعًا، وقاموا

بعِدَّةَ ثَوَارَاتٍ ضد الحكم الروماني، لعلّ أشهرها تلك التي قامت في عهد الإمبراطور (ماركيوس أورليوس ١٦١-١٨٠م) وَتُعْرَفُ (بحرب الزُّرَّاعِ، أو الحرب البوكولية)، ولكن الرومان كانوا يقضون على هذه الثورات في كل مرة.

ظلت مصر تحت الحكم الروماني ما يزيد عن ستة قرون، وفي عام (٣٩٥م) انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين شرقي، وغربي، وعلى الرغم من استمرار فكرة الإمبراطورية، فقد حكم إمبراطوران مَعًا، وَاحِدٌ فِي الشَّرْقِ، وَآخَرُ فِي الْغَرْبِ، وفي عام ٤٧٦م سقط القسم الغربي في أيدي (البرابرة الجرمان) في حين نجا القسم الشرقي الذي عُرِفَ بالإمبراطورية (البيزنطية) وعاصمته (القسطنطينية).

كانت مصر بوصفها مرتبطة مباشرة بالحكم المركزي تتأثر بما كان يحدث في البلاط (البيزنطي) من صراعات ومؤامرات من أجل السلطة، فَتَعَرَّضَ المصريون لأشدِّ أنواع المضايقاتِ في عهد الإمبراطور (فوقاس) (٦٠٢-٦١٠) بما شتهر به عهده من المؤامرات والاغتيالات إنما حَدَّدَ الإطار الخارجي الذي جرى في نطاقه من العو مل ما أدَّى إلى انتشار الفوضى والتفكك البطيء في الحكومة والمجتمع، وقد تأثرت مصر بذلك، فامتلأت أرض (الصعيد) بعصابات اللصوص وَقُطَّاعِ الطرقِ، وغزاها (البدو وأهل النوبة)، واضطربت أوضاع مصر السفلى أيضًا وأضحت ميدانًا للشغب والفتن والثورات بين الطوائف، أوشكت أن تكون حربًا أهليةً، وانصرف الْحُكَّامُ إلى جمع المال لخزينة الإمبراطور، فبذلك أُضْرِمَتْ مصر بنار الثورة، وتعرضت الإمبراطورية في هذه الأثناء إلى كارثةٍ خطيرةٍ، إذْ هُزِمَتْ عسكريًا في البلقان وآسيا لصغرى وبلاد الشام، واجتاحتها الجيوش الفارسية، ثم شَرعَ الفرسُ يغزون مصر.

كسرى أبرويز:

كان في (فوقافوكاس) (٦٠٢-٦١٠م) ملك الروم، بعث كسرى أبرويز (ملك فارس) جيوشه إلى بلاد الشام ومصر، فخربوا كنائس القدس وفلسطين وَعَامَّةَ بلاد الشام، وقتلوا النَّصَارَى بأجمعهم، وَأَتَوْا إلى مصر في طلبهم فقتلوا منهم أُمَّةً كبيرةً، وَسَبُوا منهم سَبْيًا لا

يدخل تحت حَصْرٍ، وساعدهم اليهود فى محاربة النصارى وتخريب كنائسهم، وفى أيام (فوكاس) أُقِيمَ (يوحنا الرحوم بطرك الإسكندرية) فى قبرص فَارًّا من الفرس، فخلا كرسى الإسكندرية من البطركية نحو سبع سنين، واختفى من بقى بها من النصارى خَوْفًا من الفرس، وكان غزو الفرس للإسكندرية عام (٦١٧م) وتم لهم إخضاع مصر عام (٦١٨م) وبلغوا أقاصى (الصعيد حتى أسوان)، وبقى سلطانهم فى مصر حوالى عشر سنوات، وعندما ملك (هرقل) (٦١٠-٦٤١م) الروم (بالقسطنطينية) تَغَلَّبَ على (الفرس) وغزا عاصمتهم (المدائن) وأجبرهم على الانسحاب من جميع الأراضى التى استولوا عليها من آسيا الصغرى وبلاد الشام، وخرجوا من مصر عام (٦٢٧م) وهكذا عاد الروم إلى مصر فى عهد (هرقل)، فما مضت الستتان حتى جاءت الرُّكْبَانُ بظهور الروم على الفرس.

الرُّومُ مَرَّةً أُخْرَى

خرج الروم من مصر عام (٦٢٧)، وعاد إليها الروم البيزنطيون، وفى عام (٦٣١م) أرسل هرقل (سيروس) بطركًا للإسكندرية، وهو الذى ذكره (المقريزى) باسم (فيرس) وذكره غيره باسم (قيرس) وكان ملكانى المذهب، وإلى جوار أنه كان أَسْقُفًا، فقد كان نَائِبًا عن هرقل فى حكم مصر، وكانت الإسكندرية ما زالت هى عاصمة البلاد.

وصل (قيرس) إلى الإسكندرية، وبدأ اضطهاده للقبط ليحملهم على اتِّبَاعِ المذهب (الملكانىِّ الحكومىِّ)، فكان عليهم أن يختاروا بين مذهب (خلقيدونية) بِنَصِّهِ، أو الجلدُ، أو الموتُ، وبلغَ السَّيْلُ الزُّبَى بقبط مصر، فلئن كان حكم الفرس مما لم يرغبوا فيه لِمَا كان معه من ظُلْم وَجَوْرٍ، فإن حكم الرومان وبطشهم وعسفهم لم يكن مما يفرحون به ويحمدونه، فقد جاء (قيرس) ليحرمهم حرية العقيدة، وتتفق كلمة المؤرخين أن اضطهاد (قيرس) ليحرمهم حرية العقيدة، وتتفق كلمة المؤرخين أن اضطهاد (قيرس) للقبط قد استمر عشر سنوات، بمعنى أنه استمر طول مدة ولايته يمنع القبط من ممارستهم لعقيدتهم الدينية.

المبحث الثاني:

الْأَحْوَالُ الاقْتِصَادِيَّةُ لِلْأَقْبَاطِ قَبْلَ الْفَتْحِ الإِسْلَامِيِّ:

لقد أبقى الرومان فى مصر حامية رومانية من ثلاثين ألفًا عبارة عن ثلاث فرق، وَقُوَّاتٌ مُسَاعِدَةٌ، أخضعت البلاد وأخمدت ثوارتها، وأحالتها إلى مزرعة تمد الإمبراطورية الرومانية بالمال والغلال، لاَ سِيَّمَا القمح، حتى إن الإمبراطور (تيبريوس) عَنَّفَ حاكمًا أرسل إليه حاصل الضرائب زائدًا عن النِّصَابِ السنويِّ فقال له: (إِنَّهُ إِنَّمَا وُلِّيَ عَلَى مِصْرَ لِيُجَزَّ وَبَرَهَا، لاَ لِيَسْلُخَ جِلْدُهَا)!!، فَرُومَا كانت تنظرُ إلى مصرَ على أنها بَقَرَةٌ حَلُوبٌ، فَدَأَبَتْ على استنزافِ لَبَنِهَا، فلم يكن كل قياصرة روما مثل (تيبريوس)، ومع ذلك كان من رأيِهِ أَنْ يجزَّ وَبَرَهَا، فأصبحت مصر مستعمرةً بمعنى الكلمة، وعاملت روما شعب مصر على أنه شعبٌ مغلوبٌ مقهورٌ، ومنحت اليونانيين واليهود امتيازاتٍ خاصةً في مصر، وخطر على المصريين حمل السلاح وصارت حيازته عقوبتها الإعدام، وَاتَّسَمَ الحكمُ الرومانيُّ بفداحةِ الضرائبِ والعسفِ فى الجبايةِ، وعاش المصريون قرونًا ضنكًا، حتى خربت البلاد اقتصاديًّا واجتماعيًّا، وقد كتب المؤرخُ اليهوديُّ (فيلون) فقال: إنَّ جُبَاةَ الضرائبِ كانوا يستولُون على جثة العاجزين عن سداد الضرائب حتى يُكرهوا ذَوِي قُرْبَاهُ على دفع الضرائب المتأخرة عليه، اسْتِنْقَاذًا لِجُثَّتِهِ، كَمَا ذُكِرَ أَنَّ الزوجات والأطفال وغيرهم من الأقوياء كانوا يُحْشَرُونَ إلى السجونِ، وَيُصَبُّ عليهم التعذيب حتى يصل الرومان إلى المفلس الهارب، فكان يحدث أن يهرب الأهالى من مُدُنِ بِرُمَّتِهَا، وكانت جبايةُ الضرائبِ تُطْرَحُ فى مزاد عام يرسو على مَنْ يلتزم بتوريدِ أكثر، ثم تُطلق أيديهم فى تحصيل ما يشاءون بأبشع الوسائل، حتى تناقص عدد السكان، فإذا اختفى أحد دافعى الضرائب

وقعت مسئولية سدادها على زملائه، ووقع واجب فلاحة أرضه على الآخرين، وبلغ الحال أن امتنع الملتزمون عن التقدم لهذا العمل، فكانت السلطة تُكرههم على ذلك، وصار أولئك الذين كان من واجبهم ترشيح هؤلاء ضامنين مسئولين عَمَّا ينشأ من عجز!!

وقد كان من الطبيعيِّ أن تحدث ثورات على هذا الوضع، فقد نشبت ثورة فى (طيبة) بعد بضعة شهور من الغزو الرومانيِّ، وَنُكِّلَ الثُّوارُ بِجُبَاةِ الضرائبِ للرومانِ، وزحف إليهم الحاكم الرومانى (جالوس) من الإسكندرية حتى (أسوان وما وراء الشلال) فأخمد الثورة وَنُكِّلَ بالثائرين، وتكررت الثورات فى (الصعيد) وفى (شمال شرق الدلتا) وكان الرومان يخمدونها ويبدو أن الأَمْرَ كان صعبًا على الرومان فى بعض الأحايين فعقدوا صُلحًا مع (النوبيين)، أعفوهم فيه من دفع الجزية، وأقام الرومان حصونًا فى النوبة: فى (الدكة وكلابشة وقرطاسة وأبريم) لِتُعِينَهُمْ على أمرهم، كما جَنَّدَ الإمبراطور (تراجان) بناء حصن بابليون ليكون المقر الرئيسى للحامية الرومانية فى داخل البلاد، وقد اتخذ الرومان مصر شاةً حلوبًا يريدون أن يستنزفوا مواردها وَيَمْتَصُّوا دَمَهَا، يقول (ألفرد): (إن الرومَ كانوا يجبون من مصر جزية على النفوس، وضرائب أخرى كثيرةَ العددِ، مما لا شك فيه أن ضرائب الروم كانت فوق الطاقة، وكانت تجرى بين الناس على غير عدل)، ويقول مؤلفو تاريخ العالم للمؤرخين: (إن مصر كانت تضيف إلى مالية الدولة البيزنطية مجموعًا كبيرًا من حاصلاتها ومنتجاتها، وكانت طبقات الفلاحة المصرية - مع حِرْمَانِهَا من كل قوة سياسية ومن كل نفوذ مُرْغَمَةٌ على أداء الخراج للدولة الرومية، ككراء الأرض فضلاً عن الضرائب، وكانت ثورة مصر فى هذا العهد إلى الانتقاص والانحطاط).

وهكذا عاشت مصر اقتصادياً، وهذه كانت صورتها لمدة سبعة قرون منذ انتحار (كليوباترا) (عام ٣٠ ق.م) حتى أنقذها الفتحُ الإسلاميُّ بقيادة (عمرو بن العاص) عام (٦٤٠-٦٤٢م) (٢٠هـ).

المبحث الثالث:

الأَحْوَالُ الدِّينيَّةُ للأَقْبَاطِ قَبْلَ الْفَتْحِ الإِسْلَامِيِّ:

تسربت المسيحية إلى مصر فى وقت مبكر، وأخذت فى الانتشار تدريجيًا فى أنحاء مصر منذ القرن الثانى الميلادى، فألقى الناس فيها زادًا رَوْحِيًا، يستمدون منه القُوَّةَ والقدرةَ على مقاومة ظلم أباطرة الرومان، ولا شك أن الأهمية المتزايدة لإقليم مصر هى التى دفعت الإمبراطور للوقوف فى وجه المسيحية، فلعلّها - إلى جانب مخالفتها لدين الدولة الرسمى تدفع الناس لمقاومة الظلم، فما كان من الحكام بها إلا أن زادوا من حجم الاضطهادات فى القرن الثالث الميلادى، وبالتحديد فى منتصفه، حين قدم (ديكيوس) الرومانى بمحاولة إبادة المسيحيين على مستوى الإمبراطورية كلها بما فيها مصر، مما أدى إلى نوع من الانقسام بين المصريين، ما بين متحمل للاضطهاد وثابت على الحق مهما كلفه ذلك، وما بين متظاهر بالوثنية، نجاةً بنفسه من الموت المحقق!!، وقد بلغت المظالم وحركة الاضطهاد ذروتها فى عهد (دقلديانوس) (٢٨٤-٣٠٥)م والذى تَأَبَّى المسيحيون عليه، ورفضوا تقديم القرابين لآلهته، فما كان منه إلا أَنْ مَثَّلَ بهم، وارتكب فى حقهم أفضع الجرائم حتى أُطْلِقَ على عصره (عصر الشهداء)، بسبب آلاف الأرواح التى أُزهقت من قبط مصر بسبب الكنيسة القبطية حتى الآن تستخدم تقويمها القبطى بدْءًا بسنة (٢٨٤م) والتى اعتلى فيها عرش الإمبراطورية، رغم أن اضطهاده الفعلى زاد فى أواخر حكمه سنة (٢٩٩م) ويذكر (المقريزى) أن (دقلديانوس) هذا كان من غير بيت الملك، فلما ملك تَجَبَّرَ، وَامْتَدَّ مُلْكُهُ إلى مدائن الأكاسرة ومدينة (بابل) واستخلف ابنه على مملكة (روما) واتخذ تخت ملكه بمدينة (أنطاكية)، وجعل لنفسه بلاد (الشام ومصر) إلى أقصى (المغرب)، فلما كان فى السنة التاسعة عشر من ملكه - وقبل الثانية عشرة - خالف عليه أهل مصر والإسكندرية، فَبَعِثَ إليهم، وقتل منهم خَلْقًا كَثِيرًا، وأوقع بالنصارى، فاستباح

دماءهم، وغلق كنائسهم، وحمل الناس على عبادة الأصنام، وبالغ فى قتل النصارى، وقد أقام مَلِكًا إحدى وعشرين سنة، وهلك بعد عِلَلٍ صَعْبَةٍ دَوَّدَ منها بدنه وسقطت أسنانه، وهو آخر مَنْ عَبَدَ الأصنامَ من ملوك الروم، وكل من ملك بعده فإنما كان على دين النصرانية، وَيُقَالُ: إن رجلاً ثار بمصر يقالُ له (أجلة) وَعَمَّ أَرْضَ مصر كلها بِالسَّبْيِ وَالْقَتْلِ وشأن جميع أفراد هذا النوع من أساطين الاستبداد فى تاريخ العالم من أمثال: (فرعون موسى، ونمروذ إبراهيم، وستالين، وهتلر)، ويقول: (هـ أيدرس بل): إنه لمن الخطأ أن نعتقد أن الاضطهاد كان حملةً متصلةً، وأن الحكومة الرومانية اضطهدت المسيحيين بسبب عقائدهم الدينية بالذات، فقد كانت متسامحةً كل التسامح فى المسائل الدينية، ولم تحاول أن تستأصل شأفة أَىِّ عِبَادَةٍ جديدةٍ بحجة منافاتها للمبادئ الأخلاقية، أو تعارضها مع السياسة العامة، وكان المسيحيون فى نظر السلطات مواطنين أشرارًا، وعنصرًا خطرًا فى المجتمع، لأنهم كانوا يترفعون عن ممارسة شعائر الديانة الرسمية، ولا يقدسون صور الباطرة، غير أنه كان هناك دائمًا بين الوثنيين من كان مُسْتَعِدًّا للتستر على أصدقائهم المسيحيين، كما كان حُكَّامُ الولايات يحجمون أَشَدَّ الإحجام فى معظم الأحيان عن تطبيق قانون العقوبات عليهم، ولم يكن الاضطهاد عَامًّا إلا عند حدوثِ كارثةٍ قوميةٍ، أَوْ هَيَاجٍ شَعْبِيٍّ، كما قال (ترتوليانوس): (فإذا فاض نهر التيبر على الجسور، أو غاض ماء النيل فلم يبلغ الحقول، أو أمسكت السماء عن المطر، أو زلزلت الأرض، أو حدثت مجاعة، أو انتشر وَبَاءٌ تَعَالَتِ الصيحاتُ على الفور: اقذفوا بالمسيحيين إلى الأسود)، وفى تلك الأوقات كان بين الناس من يعوذهم الجلد، وكان كثير منهم يصمدون للمحنة، وللاقتناع بصورة الاضطهاد الذى طال مداهُ وتجاوب مع من كانوا ينفذونه، أو عدم تجاوبهم، وبعد ذلك بعشر سنوات اتخذ الإمبراطور (قسطنطين) بيزنطة عاصمة للإمبراطورية الرومانية الشرقية، وَسُمِّيَتْ القسطنطينية، وأعلن اعتناقه المسيحية عام (٣٢٤ م)، ولقد كانت مصر فى عام (٣٠٠م) بَلَدًا وَثَنِيًّا فى جوهره، رغم وجود عددٌ كبيرٌ من المسيحيين، ولكنه فى عام (٣٣٠م) صار بلدًا يُدِينُ معظم أهله بالمسيحية.

المبحث الرابع

الاضْطِهَادُ الدِّينِيُّ لِلْأَقْبَاطِ:

اضْطِهَادُ المَسِيحِيِّينَ قَبْلَ الانْحِسَارِ الرُّومَانِيِّ وَالْبِيزَنْطِيِّ:

يقول المؤرخ القبطى (زكى شنودة): حين جلس (مكسيميانوس) على العرش سنة ٢٣٥م اضطهد المسيحيين اضطهادًا شديدًا وخاصةً فى مصر، فاستشهد كثيرون فى عهده، واضطر كثيرون إلى الفرار من وجهه، ومنهم البابا (ياروكلاس بطريرك الإسكندرية) وفى عهد (ديسيوس) الذى جلس على العرش سنة ٢٤٩م، يقول القديس (ديونيسيوس): (إن الخوف عَمَّ الجميع، وقد فصل المسيحيون جميعًا من خدمة الحكومة مهما كانت كفاءتهم أو مقدرتهم فى عملهم، وكان الوثنيون يوشون بالمسيحيين ويرشدون عنهم، فَيُؤْتَى بهم فى الحال ويطلب منهم تقديم الذبائح للأوثان، ومن أولئك الأتقياء رجل اسمه يوليانوس كان مقعدًا؛ فحمله رجلان إلى دار الحكم وطلبًا منه أن ينكر إيمانه فرفض، وعندئذٍ حموهُ على جملٍ وطافوا به فى شوارع الإسكندرية وهم يجلدونه بالسياط، ثم أخيرًا طرحوه فى لهيب النار فظل يحترق حتى مات)، وينقل لنا (المقريزى فى كتابه القَيِّم. المواعظ والاعتبار) صورًا من المعاناة التى عاشها قبط مصر أثناء حكم بعض قياصرة الروم، فيقول: (وفى أيام الملك أنديانوس قيصر أصاب النصارى منه بلاءًا كثيرًا، وقتل منهم الكثير، واستبعد باقيهم، فنزل منهم بلاءً لا يوصف فى العبودية حتى رحمهم الوزراء وأكابر الروم وَشُفِّعُوا فيهم، فَمَنَّ عليهم قيصر وأعتقهم، واشتد الأمر على النصارى فى أيام الملك (أريدويانوس) وقتل منهم خلائق لاَ يُحْصَى عددهم، وَقَدِمَ مصر فأفنى من بها من النصارى، وَخَرَّبَ مَا بُنِيَ فى مدينة القدس من كنيسة النصارى، ومنعهم من التَّرَدُّدِ إليها، فلم يتجاسر نصرانى أن يدنو من القدس، واشتد الملك (أوليانوس)

قيصر على النصارى، وقتل منهم خلقًا كثيرًا، وأصاب الملك (سوريانوس قيصر) فى النصارى بلاءً كبيرًا فى جميع مملكته، وقتل منهم خلقًا كثيرًا، وَقَدِمَ مصر وقتل جميع مَنْ فيها من النصارى، وهدم كنائسهم وبنى بالإسكندرية هيكلاً لأصنامه، وَلَقِيَ النصارى من الملك (مكسيموس قيصر) شدةً عظيمةً وقتل منهم خلقًا كثيرًا، كما لَقِيَ النصراى من الملك (داقيوس قيصر) شدةً؛ فإنه أمرهم أن يسجدوا لأصنامه، فَأَبَوْا عن السجود لها فقتلهم أَشَدَّ قتله، وَاشْتَدَّ الأمر على النصارى فى أيام الملك (طيباروس قيصر) وقتل منهم خلقًا كثيرًا، فلمّا كانت أيام (دقلديانوس قيصر) خالف عليه أهل مصر والإسكندرية فقتل منهم خلقًا كثيرًا، وكان يغلق كنائس النصارى، وأمر بعبادة الأصنام، وقتل من امتنع منها فَارْتَدَّ خلائق كثيرةً جدًّا، وفى عهد (دقلديانوس) قتل بطرك الإسكندرية (بطرس بالسيف ومعه امرأته وابنتاه لامتناعهم من السجود للأصنام) ثم قام بعده (مكسيمانوس قيصر)، فاشتد على النصارى وقتل منهم خلقًا كثيرًا، حتى كانت القتلى منهم تحمل على الْعَجَلِ (العربات) وَتُرْمَى، ولم تلبث المسيحية أن لقيت قُبُولاً فى عهد الإمبراطور قسطنطين الأول (٣٢٣-٣٣٧م) لاَ سِيَّمَا بعد أن اعترف بِهَا دِينًا مَسْمُوحًا به ضمن الديانات الأخرى فى الدولة الرومانية بموجب مرسوم (ميلان الشهير) فى عام ٣٤٣م، ثم أصبح الدين الرسمى الوحيد للدولة فى عهد الإمبراطور (تيودوسيوس) الأول (٣٧٩-٣٩٥م) والذى أصدر مرسومًا بذلك عام ٣٨٠م، كما أصدر مرسومين فى عامى ٣٩٢، ٣٩٤م حرم بموجبها العبادات الوثنية.(١)

(١) شبكة الانترنت.